التراث العربي الإسلامي ودور المستشرقين في الحفاظ عليه

أ.م.د.محمد عبد مرزوك

كلية التربية للبنات -الجامعة العراقية

تمهيد:

على مرِّ تاريخ البشرية وبمختلف شعوبها واجناسها واعراقها هناك علائق تربطها ببعضها ، وليست بدعا ولا تخرج عن اطار التواصل البشري علاقة الشرق بالغرب بمختلف محطاتها. الا ان الذي يميز هذه العلاقة هي الفوقية التي يتميز بها احد الفريقين عن صاحبه، وقد نشأ من تداعيات هذا البون في المستوى نبرة تحدٍّ انعكست تداعياتها على جل مفاصل حياة الفريقين بمختلف ازمانها . وإذا كانت ادبيات المسلمين الحقة ترفض جملة وتفصيلا هذا التعالي في نضرتها للشعوب فقد تنزع اليها احيانا كردة فعل لغرب امعن في فوقيته بنضرته للإنسان الشرقي "انها نظرة سلطوية فوقية، موجهة، عدائية، يرونه شيئا فقط– جمادا أو حيوانا في حاجة إلى الترويض، وفي احسن الظروف قد يرونه انسانا ، لكنه همجي بدائي، عدواني ارهابي لا يصل ولا يجوز ولا يُقبل أن يصل إلى مرتبة البشر أو الانسان الغربي ، فهو يمثل تركيبا دونيا للطبيعة الانسانية".[1]

ولا يتورع دارسو الغرب ومستشرقوه المتطرفون –وهم كثر– عن البوح ببعض ما يختلج في صدورهم كناية عن الخط العام لهذه العلاقة ، إذ يقول (ريموند لول) في ذلك "الإسلام لا يمكن ان يُتسامَحَ معه !! الا إذا أُسكِت خاضعا خانعا، وان الحل الوحيد والنهائي له هو تحطيمه"[2] .

---

[1] - سعيد، ادوارد، الاستشراق–المعرفة، السلطة، الانشاء، ترجمة:كمال ابو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/1984م، ص71–72

[2] - نقلا عن: السامرائي، قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الوعي، الرياض/1983م، ص219.

ولسنا في محل تفصيل الحوادث التي عزاها المؤرخون لأن تكون السبب في عدم استقرار هذه العلاقة وحيثيات اضطرابها ابتداء من معركة مؤتة سنة 8هـ/اغسطس-629م، ومرورا بحملات الراشدين ثم فتح الاندلس وآسيا الصغرى ثم الحدث الأهم المتمثل بالغزو الصليبي والذي له يعطي المؤرخون حصة الأسد في تذبذب العلاقة وجنوحها نحو عداء أبدي لا تستطيع دبلوماسية اليوم وديمقراطيته أن تهدأ من روعه ، وسط دعم الغرب في نهاية المطاف لكيان سرطاني في قلب الشرق الإسلامي يضرب بعرض الحائط كل مُثلِ الغرب وتشدقاته بالمساواة ونبذ العنصرية والتطرف.

واذن فهناك تقعيد راسخ تتكئ عليه العلاقة المريبة على مر عصورها ودهورها بين الشرق والغرب ، والتي ترسم بايديولوجياتها وخطها العام ، برغم محطات الوئام والحوار التي تقف عندها والتي غالبا ما يكدر صفوها أُسُّ المشكلة وجوهرها الايديولوجي والذي لم يعالج حتى الساعة .

على ان فترات الصراع نحت مناحي عديدة واتخذت اشكالاً متنوعة كان من أدواتها المهمة الفاعلة حركة الاستشراق والتي كانت تمهد الطريق وترسم مساربه ، ومن هنا تكمن اهميتها في كونها لم تأت من فراغ أو سبب عابر بل هي الجزء الأكبر من الوجه الفكري-إن لم يكن كله- لهذه العلاقة وما يمكن ان ينضوي تحت هذا العنوان .

إلا أن الاستشراق لم يستطع أن يتعامل مع الثقافة الإسلامية من منطلق موضوعي كما تعامل مع الثقافات الشرقية الأخرى وذلك لأن الموروث التاريخي ما زال راسخا في الوعي الذاتي للشخصية الغربية التي تنظر إلى لإسلام بتعال، وكان يمكن لهذه النظرة أن تتحول إلى منبر للتصالح واداة للتقارب والتعايش بين حضارتين لو لم يذهب الاستشراق لسياسة مواجهة مبرمجة كانت نتاجا طبيعيا لاختلاط الثقافة بالسياسة وتداخل الدوافع والأهداف[1]

[1] - النبهان، محمد فاروق، أثر البحوث الاستشراقية في الدراسات الإسلامية، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد-329، تموز/1997م، ص34.

ولكي يكسب الغرب الجولة ويمسك بحلولها بعد ان ضنَّ انه خسرها لقرون غابرة فقد أثر ان يعبِّد له الجانب الفكري(الاستشراق) الحصة الأكبر من الطريق ، فدسَّ في جسم الشرق انفه .

وعلى هذا نهضت أقلام مفكريه وشرعت هممهم لدراسة نتاج هذا الغريم ووضعه ضمن دائرة بحثه ، ولهذا فان دراسات المستشرقين الرصينة والتي تميزت بكفائتهاوعلميتها جاءت بمعضمها خدمة لهذا النمط من التفكير في انها وضفت لمعرفة إبداع الشرق والوقوف على كنه نتاجه للإفادة منه. وحتى يتحقق كل هذا، أرسل الغرب عِلية مفكريه وخاصَّة علماءه ولم يبخل عليهم بمال أو دعم وعلى كافة الصعد والمجالات، ومن هنا جاء ما أرادوه أن يبقى على حقيقته دون تحريف أو تزوير من افضل النتاجات .

كيف نتعاطى مع النتاجات الاستشراقيه

قبل أن تشرع هذه الدراسة في بيان جهود المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي وما خطت أقلامهم بهذا الاتجاه هناك أسئلة مهمة طرحها بعض الباحثين تراها هذه الدراسة هامة ومساعدة في تقييم النتاج الاستشراقي وسط هذا الكم الغزير من أعمالهم ، فنحن بحاجة إلى مزيد من التقويم الموضوعي لهذه النتاجات وما صدر من المعاهد والمؤسسات الاستشراقية إذ لا يكفي أن نقف متفرجين ، فهل نبدأ بتصحيح أخطاء المستشرقين التي شابت أعمالهم سواء كانت تلك الأخطاء بقصد أو سبق إصرار أم بدونه، هل نتهجم عليهم بلا أسلوب علمي رشيد فنغالط أنفسنا إذ يزيدهم ذلك قوة ؟ هل نفتح قنوات الاتصال معهم وما اكثرها وسط تقدم دولهم والعالم تكنلوجيا وثقافيا ؟[1]

وعلى هذا ينبغي لمن يتصدر لقراءة كتابات المستشرقين –مجرد القراءة– أن يتسلح باطلاع يقيه مصائد المغفلين التي اعتاد كتابهم أن ينصبوها فوقع في شركَها كثير ممن يدعي الحصافة والعقل الرشيد ، فضلا عمن يتصدى للرد عليهم إذ ينبغي لمثل هؤلاء أن يطلعوا ويقفوا مليا على خلفيات حركة الاستشراق وما جاءت له.

---

[1] - النملة، علياابراهيم، أعمال المستشرقين مصدر من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين، مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: 7 ، السنة: 7 ، الرياض/2007م ، ص519-564

وإذا كان مفكرونا يثنون في مواضع عديدة على نتاجات المستشرقين العلمية والتي برّزت امكانياتهم البحثية وقدرتهم –بما توفر لهم من اسباب البحث ودواعيه– فإنهم بذات الوقت يؤكدون ان المستشرقين "لم يعودوا يحتكرون هذه المنهجية بل نستطيع نحن الباحثين اليوم التعرف على آلياتها وتطويعها بكيفية افضل لأن أذنهم باستمرار كانت أذنا أجنبية تسمع الكلمة فتبحث عن معناها الاشتقاقي والاصولي ، واما الاذن العربية فتقرأ وتسمع وتفهم"[1]

ولقد ولج المستشرقون السوح العلمية والثقافية الإسلامية بقوة وكتبوا في تراث المسلمين وأهل الشرق ودرسوه تحقيقا ونشرا وتبويبا وتصنيفا ووضعوا له الكشافات إذ بلغت مؤلفاتهم بعد سنة 1800–1950م نتاجا ضخما حيث وصلت تلك النتاجات إلى ما يربو على الستين الف مؤلف ما بين كتاب في الفلسفة والتاريخ والتصوف والأدب واللغة العربية [2] ، بالإضافة إلى إصدار ما يزيد على خمسمئة دورية من ذوات العلاقة بالاستشراق وبحدود ثلاثمائة دورية متخصصة دقيقا به[3] ، ناهيك عن المراكز ومعاهد الاستشراق والدراسات العربية والإسلامية في آسيا واوربا واستراليا وامريكا والتي تعد بالمئات[4] ثم انهم قاموا بترجمة الآلاف من مقتنيات وجواهر هذا التراث إلى اللغات العالمية، فضلا عن التوجيه والإرشاد للأخذ بالمناهج الحديثة في البحث والدراسة وعرّفوا الآخرين بحضارة العرب والمسلمين وتراثهم ومآثرهم فقدموا بذلك أشياء كثيرة نافعة لا يمكن تجاهلها[5].

ومن ذلك ان للمستشرقين جهود تقدر كثيرا في تدوين التاريخ الجاهلي وفي كتابته بأسلوب حديث يعتمد على المقابلات والمطابقات ونقد الروايات ، فقد افادوا مما جاء عن العرب في التوراة والتلمود والكتابات الاشورية والبابلية والمؤلفات النصرانية

---

[1] - الجابري، محمدعابد، حوار مع مجلة آفاق عربية، العددالخامس، السنة الثانية عشرة، دار الشؤون التقافية-بغداد/1987م، ص124–125

[2] - الديب، عبد العظيم محمود ، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي ، الدوحة/1990م، ص38 .

[3] - أبو حسنه ، عمرعبيد، تصدير كتبه السيد ابو حسنه في تقديمه لكتاب عبد العظيم الديب (المنهج في كتابات المستشرقين)، ص22 .

[4] - لتفصيل أكثر ينظر:بارت ، رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية –المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه ، ترجمة: مصطفى ماهر ، دار الكتاب العربي ، القاهرة/ بلا .

[5] - زناتي، انورمحمود، اهتمام العلماء والمثقفين الأوربيين بدراسة اللغة العربية، 2012/11/5. www.alukah.net

واليونانية واللاتينية ، كما اعادوا بعث الكتابات الجاهلية ونشرها بإعادة الحياة للخط الذي كتبت به الحياة انذاك وجعلوه مقروءا معروفا ، كما ترجموا النصوص إلى لغاتهم وهي وثائق من الدرجة الاولى ، وقد امكننا بفضل هذا المجهود المضني الحصول على اخبار دول واقوام عربية لم يرد لها ذكر في الموارد الإسلامية ، وقد ساعدهم على كل ذلك علمهم بلغات عديدة كالعبرانية والسريانية والبابلية بحكم تقارب هذه الثقافات بما يسمى "الرابطة السامية"[1]

ولمكانة هذه النتاجات وعظم قيمتها علميا أوصى مفكري الشرق ممن ولجها ووقف عليها بتبني الية للاستفادة القصوى منها ، وانه من الخير للدارسين العرب والمسلمين ان يقفوا على نتاجات هؤلاء المستشرقين ليفادوا منها ، إذ من الخطأ الكبير والفادح الحكم بادئ ذي بدء على ما يكتبه المستشرقون أنه شر مستطير وافتراء وإلحاد فذاك أمر ضرره عظيم ، وان الاطلاع على نتاجهم والإفادة منه خير الف مرة من تجاهله ثم بالمحصلة النهائية الجهل به[2]

1- جهود المستشرقين في مجال إبراز الآثار والتنقيب عنها:

أسهم المستشرقون بفاعلية في مجال التعريف بالآثار العربية والإسلامية وكان احد الأعمال المهمة لهم في ذلك هو فك رموز الكلمات التي شكلت المفصل الأهم في هذا العمل إذ هو منطلق لقراءة ما موجود على الالواح والرقع والجدران ، ومن بين المستشرقين الذين برزوا في هذا المضمار المستشرق الألماني (لتمن- ENNO LITTMANN-1875-1958م) والذي عني بالنقوش العربية القديمة ومن نتاجه "النقوش السامية-1904م" وهو بالانكليزية، وكذلك "في حل رموز نقوش ثمودية-1904م" ، وله أيضا "دراسة في النقوش العربية الشمالية القديمة-1940م" وهو الذي كتب تقارير عن بعثة جامعة برنستون إلى الحبشة-1910م وبعثة اكسوم 1913م [3]

ولعل اكتشاف حجر رشيد ، سنة 1799م وفك رموز الكتابة في النصوص الثلاثة التي كتبت على هذا الحجر؛ كان من الإنجازات التي أحدثت إنعطافة قوية في

---

[1] - علي ، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط4، دار الساقي، 2001م ، 132/1 .

[2] - السامرائي ، إبراهيم ، من دراسات المستشرقين، دار الفكر، عمان/1985م ، ص219.

[3] - بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/2003م، ص512-513 .

صنيع الآثاريين من المستشرقين الفرنسيين ، تقول المستشرقة الفرنسية "روبير سولي" والمستشرق "دومنيك فالبيل" وهما مؤلفا كتاب حجر رشيد في مقدمتهما: "ربما كانت حملة نابليون على مصر فاشلة عسكريا وسياسيا .ولكنها كانت ناجحة علميا وثقافيا فقد رافق الامبراطور أكثر من مئتي عالم من شتى الاختصاصات وهم الذين اسسوا علم المصريات القديم وجمعوا معلومات هائلة عن وادي النيل وحضارته ..." [1]

ومن صنيع المستشرقين ومساهماتهم في إبراز تراث اليمن الجنوبية ما قام به البلجيكي (ريكمانس- LOUIS CONSTANT DE GONZAGUE RYCKMANS)-1887-1969م ، حيث قام بنشر "سجل النقوش السامية" والذي يصير بعد مجلده الخامس مكرسا كله تقريبا للنقوش العربية الجنوبية إذ فيه ما يقارب 2500 نص ما بين سني(1928-1950) حيث صارت تلك النصوص معتمد الباحثين في نقوش العرب الجنوبية والتي تفصح ترجماتها عن حضارة بلاد العرب قبل الإسلام[2] .

ثم نشر ريكمانس (النصوص الحضرمية)التي اكتشفها (كاردنر-E.Gardner) و(كيتون تومسون-G.CatonTohompson) في الحريضة بحضرموت وكذلك المواد المنسوخة من قبل د.احمد فخري في رحلته لليمن [3] . ولا شك ان التعامل بالنقوش وبلغات قديمة مما يحتاج معه لفك رموزها وطلاسمها واظهارها للقارئ هو عمل غاية في التعقيد والصعوبة ويحتاج لمعرفة دقيقة باسرار اللغات القديمة وكنهها مما يؤشر لحجم المنجز وتميزه عن باقي إنجازات المستشرقين والتي قد لا تحتاج لمثل هذه المعرفة بالآثار.

ثم ان (ريكمانس) كان قد اشترك برحلة استكشافية ما بين عامي (1951-1952م) قطع فيها مع زملائه ما يقارب 5500كم إذ سارت الرحلة من جدة-الطائف-تربه-بيشه-ابها-كهيف-نجران- وشمالا إلى كوكب ودم فالرياض وكانت

---

[1] - سولي، روبير وفالبيل، دومينيك، حجرة رشيد-قصة فك الغاز اللغة الهيروغليفية ، الناشر:بروفايل بوكس ، لندن 2001م، المقدمة

[2] - وي، موسوعة، ص304-305 ؛مراد، يحيى، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت/2004م، ص638 .

[3] - بدوي، موسوعة، ص304-305؛ فخري، أحمد ، رحلة اثرية إلى اليمن، ترجمة:هنري رياض ويوسف محمد عبدالله، مراجعة:عبد الحليم نور الدين، وزارة الثقافة اليمنية، صنعاء/1986م ، ص129-147 .

محصلتها اثنا عشر الف نص نسختها البعثة منها تسعة الاف ثمودية وكانت تمثل خمسة اضعاف ما نشر حتى تلك الفترة وهي ذات اهمية لا تقدر في التعريف بتاريخ شبه الجزيرة العربية، وعثرت البعثة كذلك على مجموعة من النصوص السبأية قرب نجران وكوكب فالقت معلوماتها القيمة أضواء ساطعة على أعمال الحميريين في العصر السابق مباشرة للاسلام[1]

وفي كنوز آثار العرب وما تحويه أرضهم منها فان للآثاري الفرنسي (رينيهديسو–RENE DUSSAUD –1868–1958م) باعا طويلة في الكشف عن آثار سوريا إذ كرس كل مؤلفاته تقريبا في هذا المجال ، فبعد ان درس علم الآثار والنقوش واللغات السامية سافر إلى سوريا وابتدأ أبحاثه بها وتمثلت مجالات الدراسة عنده في اربع ميادين هي : الفيلولوجيا والنقوش والنمَّيات(النقود) والآثار وتاريخ الاديان وله دراسات عن رأس شمرا (اوجاريت) وهي مدينة شهيرة قرب مدينة اللاذقية على شاطئ المتوسط وقد عرفت أوغاريت بأنها أول من قدمت أبجدية للعالم وكذلك أول من قدمت نوطة موسيقية[2]

كما إن هناك نموذجا آخر من المستشرقين كان كمن يقاتل في ساحة حرب لغرض البحث والحصول على المعلومة في ظل أجواء غير مشجعة أبدا ، هؤلاء الباحثين من المستشرقين عندما نقف على قصصهم وطريقة بحثهم وكيفية الحصول على المعلومة من قبلهم يقفز إلى اذهاننا سؤال مهم للغاية : لماذا كل هذا الاصرار على العمل وسط ضرف غير مشجع البته[3] .

وكان ممن هذا شأنه من الرحالة المستشرقين الانكليزي (تشارلز مونتجيوداوتي–CHARLES MONTAGU DOUGHTY 1843–1926م) إذ ابتدأ رحلته الاستكشافية في بلاد العرب على ظهر جمل من جزيرة سيناء عام 1875 ثم

---

[1] - بدوي، الموسوعة، 304–305 .

[2] - بدوي، الموسوعه، ص 269 ؛ عدره، هشام، مرور 75 سنة على اكتشاف اوغاريت : مدينة الابجدية الاولى والنتويط الموسيقي الاقدم..، مجلة الشرق الاوسط، العدد/9341 ، السبت 10/ربيع الثاني/1425هـ، 29/مايو/2004م

[3] - الخويطر، خالد بن سليمان بن علي ، مشاهدات الرحالة الاجانب في مدينة عنيزة خلال قرنين، مجلة الواحة، العدد الستون، السنة السادسة عشرة، الرياض/ شتاء 2010م، المقدمة.

عرج على معان وبترا (سلع)، ولما علم بوجود نقوش على صخور مدائن صالح قرر دراسة هذه النقوش ، ومن صنيعه انه وضع خطة لاستكشاف وادي عربة[1] .

وكان من اصراره على اتمام مهمته انه عندما منعه الاتراك من الذهاب مع قوافل الحجيج المتجهين من دمشق إلى مكة تخفّى بزي عربي وأسمى نفسه "خليل"، واقام بدمشق لمدة عام تعلم فيها العربية[2] ثم تسلل في عام 1876م مع الحجاج وانفصل عنهم في مدائن صالح وشرع بدراسة نقوشها ثم توجه لقلب الجزيرة العربية حائل ثم خيبر والقصيم ثم انتهت رحلته عام 1878م إذ كانت مدينة جدة هي آخر مطاف تشارلز دواتي حيث زاد مرضه ولم تسعفه صحته للكتابة عنها[3] ، عاد بعدها إلى انكلترا ووثق منجزاته بكتاب ترجم إلى العربية[4] .

وعن بعثة الحفائر التي قام بها إلى سوريا فقد كتب رينيه RENE وبالتعاون مع (فريدريك ماكلير–FREDERIC MAKLER) تقريرا بعنوان "رحلة اثرية في الصفا وجبال الدروز

2- جهود المستشرقين في مجال التحقيق والمخطوطات

يتلمس الباحث المعاصر سواء في تارخ العرب القديم أو الإسلامي وبصورة مباشرة الكثير مما حققه المستشرقون من المصادر التي يعتمد عليها والتي اخرجها هؤلاء المستشرقون للقارئ، ففي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ابتدأت أعمال المستشرقين في هذا المجال تظهر تباعا أكثر من اي مدة سابقة.

ويعزى الفضل الاول في إخرج هذا الجهد للقارئ والباحث العربي بالدرجة الأساس للمحققين والباحثين من المستشرقين إذ لولا هذا الجهد لما استطاع الباحثون اليوم مواصلة كتاباتهم وأبحاثهم إلا بالرجوع إلى المخطوطات التي عمل المستشرقون على تحقيقها ونشرها وعلى سبيل المثال من مثل هذه الجهود في تحقيق امهات

---

[1] - وبن ، بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة: عبدالله آدم نصيف، الرياض/1409هـ ، ص67-68

[2] - حمدان ، عاصم ، آداب الفكتورية والعربية واثرها في تكوين شخصيات الرحالة الغربيين ..دواتي وريتشارد بيرتونانموذجا ، صحيفة المدينة، العدد/18207، المدينة المنورة/27-2-2013م.

[3] - اليافي ، عدنان، جده:آخر محطات الرحالة دواتي في الجزيرة العربية ، مجلة جده، العدد السابع والثلاثون، جدهـ/ اكتوبر-2010م ، ص25-28

[4] - دواتي، تشارلز.م، رحلات داوتي في الجزيرة العربية، ترجمة: عدنان حسن، دار الوراق، لندن/2009م.

المصادر العربية ما قام به دي خويه في تحقيق كتاب تارخ الطبري ، أو ما قام به نوربرغ في تحقيقه لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وأيضا جهود هوتسما الذي حقق تاريخ اليعقوبي.

وقد كان للمستشرقين في مجال تحقيق الكتب الجغرافية بصمة وجهد أيضا نذكر على سبيل المثال منها جهود دي خويه وتحقيقه لمختصر ابن الفقيه وكذلك كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه واحسن التقاسيم للمقدسي والاعلاق النفيسه لابن رسته كما حقق داود ميلر (1884–1891م)كتاب صفة جزيرة العرب.ومن كتب الطبقات التي طالتها دواة المستشرقين في تحقيقاتهم كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، الذي حققه سخاو ورفاقه سنة 1903م، وكذلك تحقيق لبرت لكتاب اخبار الحكماء للقفطي، وايضا تحقيق اوغست مللر لعيون الانباء لابن ابي اصيبعهوامريء القيس لابن الطحان عام 1884م.

ولم تكن جهود المستشرقين وحدها في التحقيق والفهرسة والتكشيف لتنتهي عند هذا الحد فقد ساعدت مكتباتهم المدعمة بمؤهلات خاصة على حفظ المخطوطات ، وقد وجدت المخطوطات العربية والإسلامية طريقها نحو المكتبات الغربية وعلى وجه الخصوص الألمانية منها بشتى الطرق شراء أو استيلاء عليها من الأقطار العربية، وإذا كانت طرق استقدام هذه الكنوز والاستحواذ عليها مريبة وتتم في أغلب تعاملاتها عن دونية لا يستحيي الغرب عن تعاطيها إلا أنها بحق وجدت لها من يحفظها ويفهرسها ويعمل على تحقيقها وهي لا شك ذخائر تراثية لا تقدر بثمن[1] .

وللجهد الألماني خاصة أثر واضح في حفظ تراث العرب والمسلمين لا ينبغي لحصيف انكاره ، وبغض النظر عن دواعي هذا الحرص ومسبباته وتداعيات فوائده على الغرب نقف لننظر في آلياته ، حيث تمثل في جزء كبير منه بالمحافضة على المخطوطات إذ حوت مكتبة برلين لوحدها بحدود عشرة الاف مخطوط وقد فهرست بعشر مجلدات ، وفي مكتبة جامعة جوتنجن هناك حوالى ثلاثة الاف مخطوط ، وفي جنوب المانيا بجامعة توبنجن هناك حفظت العديد من المخطوطات[2] .

---

[1] - بدران، محمد ابو الفضل، الاستشراق الألماني ودوره في نقل الثقافة العربية. www.moslimonine.com

[2] - م.ن

وبغض النظر عن مدى حرص دارسي الشرق ومفكريه في الحفاظ على آثاره وتاريخه إذ لا شك أنه مرتهن بنسبة الاستقرار السياسي والاقتصادي في بلدانهم فللعاقل أن يخال شكل هذه المخطوطات ومآلها وسط اضطراب الشرق وغياب ستراتيجة واضحة تعنى بتراثه وتَحْفَظَهُ.

وإذا كان ما بقي من تراث الشرق ومخطوطاته يلقى الإهمال على ما فيها من قيمة لا تقدر بثمن فان قرين هذا التراث ممن قدر له ان ينقل إلى الغرب بشتى الطرق والوسائل تمتع بالإضافة لحفضه في ظروف مثالية بالعناية به من قبل المستشرقين والمتمثلة بتحقيق علمي لمخطوطاته مصحوب بفهارس متعددة مضافا لها معاجم مساندة تساعد القارئ وترشده وتختصر عليه الوقت والجهد ومن هذه المعاجم المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي وضعه المستشرق الألماني فلوجيل، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ومعجم شواهد اللغة العربية وهي مؤلفات رائدة يعتمد عليها المحققون العرب[1].

وإذا ما أردنا تقييما لعينة من هذه النتاجات لمحققين محدثين شرقيين بارزين من مثل الاستاذ مصطفى السقا والذي كان قد وصف نتاج المستشرق وستنفلد (1808–1899م) عند تحقيقه لمعجم: معجم ما استعجم، ووصفه بانه كان يجمع الوثائق ويعدها، ثم يقارن النسخة التي أراد تحقيقها بنسخ كانت في مكتبات عديدة في كيمبردج وليدن ولندن وميلان، وكان يخلص من هذه النسخ إلى نسخته التي خطها بيده ووضعها بمجلدين ، ثم وصفه بالعالم الضليع في الضبط والتحري والاستيثاق من الأصول وانه وضع فهرسة للمواضيع والأماكن[2] .

ولا شك ان هذه الشهادة هي اعتراف بجهد المستشرقين وان قد تكون خاصة بحالة فردية، ولكن لا شك ان العدد الاكبر من هؤلاء المحققين كانت نتاجاتهم قيمة ، فضلا عن أن محققاتهم إلى الآن تعتمد كمصدر أساس للباحثين . وان باحثا ومحققا كمصطفى السقا ذو باع وأثر في مجال التحقيق لا شك أن شهادته تحسب لصالح نتاجات المستشرقين وجهودهم.

---

[1] - م.ن

[2] - السقا، مصطفى، مقدمة استهل بها المحقق نتاجه (معجم ما استعجم)، القاهرة/1945م، ص.ح،

على أن هناك نظرة خاصة لبعض البارزين من رواد الفكر العربي لعلم التحقيق قد يخالها البعض غريبة ، وتتلخص هذه النظرة بأن التحقيق لا ينبغي أن يتخذ لغرض التحقيق والتكسب لأنه بالنتيجة يقتل إبداع الدارس ويحوله إلى ناقل أو آلة مجردة من التفكير الديناميكي الذي يرقى به نحو تطور منشود لعقليته، وعلى هذا لا ينبغي الانكباب على التحقيق ولا أن نتخذه مهنة كما فعل الكثير من المحققين العرب في منتصف وأواخر القرن العشرين والذين صار مردُّ غزارة نتاجهم هو التكسب!!؟، إذ لا ينبغي أن يحقق الدارس إلا ما يحتاجه فعلا لدراسته[1] .

ويبدو أن هذا الرأي ينطبق على شريحة معينة من المحققين الذين عاشوا في ضروف صعبة فالتجأوا إلى ما يستطيعون به سد رمقهم ولقمة عيشهم وسط ظرف قاهر فانشغلوا بالتحقيق وكرسوا جل جهدهم له فكانت جل نتاجاتهم تحقيقا .

3- جهود المستشرقين وخدماتهم في مجال اللغة العربية:

كانت اللغة ولا زالت وسيلة التفاهم التي لا غنى عن تعلمها لسبر أغوار حضارات الشعوب والأمم ، وتكاد اللغة تتقدم اولويات التعلم المختلفة التي رسم لها المستشرقون في ستراتيجيات عملهم في الشرق الإسلامي ، وعلى هذا فقد بكر دارسوهم في الاهتمام باللغة العربية وتعلمها وإتقانها وتعليمها لمن أرادوه من تلامذتهم ومن يعدونهم للمستقبل. فكانت من أوائل العلوم التي اولوها عناية كبيرة. ولشدة عناية المستشرقين بهذه الدراسات ودورها التعريفي بحضارة الشرق ومكنوناته فقد أرجأ البعض بداية حركة الاستشراق برمتها إلى تاريخ قيام مجمع فينا الكنسي بإنشاء كراسي دراسة اللغة العربية هذه بالإضافة للغات العبرية والسريانية في عدد من المدن الاوربية مثل باريس واكسفورد ، وكان ذلك عام 1245م[2].

وفي عام 1632م أنشأتجامعة كمبريدج اول كرسي لها في اللغة العربية والذي قام بإنشاءه عمدة لندن البارون:(السير توماس آدم , professor of Arabic

[1] - رأي خاص بالدكتور أحمد مطلوب أحمد استاذ العربية والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية ورئيس المجمع العلمي العراقي ، مقابلة خاصة معه في المجمع العلمي العراقي حزيران/2013

[2] - الخفاجي، عبدالمنعم، الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجبل ، بيروت/1992م، ص322

(Sir Thomas Adams,s 1586–1668)[1] ولو نظرنا إلى المدة التي رافقت انشاء هذه الكراسي فإن هذه الفترة كانت من أكثر فترات الحركة الاستشراقية– إن لم تكن أكثرها– تعصبا حيث طغى عليها السب والشتم والقذع وكان المستشرقون لا يتحرجون من البوح بعصبياتهم المختلطة عميقا بأيديولوجيات الكنيسة .اذ ارتبط كرسي اللغة العربية الذي أنشأه توماس ادم هذا بحركة التنصير بصورة مباشرة حيث يقول رئيس جامعة كمبريدج برسالة إلى السيد توماس آدمز ان الحافز على تأسيس الكرسي هو "نشر الدين المسيحي في أوساط الذين يعيشون الآن في الظلام"[2] ؟؟

وأيا كانت غايات إنشاء كراسي كهذه؛ فان مرادنا منها هو بالكيفية والقدر الذي أسهمت به في خدمة اللغة العربية وتسببت في انتشارها في الغرب الاوربي، ولا شك في ان هذه الكراسي كانت مدعاة للتعريف بلغة الضاد واسرار سجعها وطباقها وجناسها وسعة مفرداتها التي تتميز بها عن باقي لغات العالم ونقلها بهذه الكيفية كلغة عالمية تدرس في الجامعات الاوربية مما يتوفر معه فرصة عظيمة لهذه اللغة لان يبصرها الغرب فيتأثر بها علمائهم فضلا عن عامتهم.

وقد برهنت الاحداث أن الغرب قد نهل من معين اللغة العربية وتزود من ثقافتها، ثم انتعلم العربية وإتقانها كان شرطًا أوليًّا للذين يريدون أن يدرسوا الحضارة ويتثقفوا بالعلم والمعرفةوقد ظهرت أسماء عديدة لمهتمين من الغرب برعوا في العربية من أمثال (روجر بيكون) [3] ، ويمكن القول ان هذه الكراسي كانت انتقاله مفصلية مهمة في تاريخ الدراسات الاستشراقية بما يخص خدمة اللغة العربية وعلومها في العصور الوسطى ثم انعكاسات هذا الاهتمام والرعاية من قبل المستشرقين على المعاصرين الذين طوروا هذه المؤسسات إذ ما زالت الجامعات الحاضنة لهذه الكراسي مركز استقطاب الدارسين والمهتمين بلغة الضاد.

---

[1] -)chalmers, Alexander. *The General Biographical Dictionary: Containing an Historical and Critical Account of the Lives and Writings of the most Eminent Persons in Every Nation; Particularly the British and Irish; from the Earliest Accounts to the Present Time*. new ed. rev. and enl. London: Nichols [et al.], 1812–1817. 32 vols.

[2] - (2) Leslie ,McleoGlenn.British Orientalists in the twentieth Century, Azqa Bryce,London,p.151

[3] - بن الحاج، محمد مصطفى، عالميّة اللغة العربيّة ، ص 259، 260، 265

وإذا كان الغرب الاوربي قد جد وسعى في نشر العربية وعلومها عندما أحس حاجته إليها منذ القرون الوسطى، حيث بداية سعيه لاعتلاء منصة الحضارة في العالم وتسيدها ووسط تراجع الشرق وأهله عن هذه المهمة، وإذا كان من البديهي أن يحمل أهل العربية اليوم على عاتقهم مهمة بيان علومها للناس ونشرها بالذي تحمله كونها لغة عالمية قديما وحديثا، ووسط توفر الإمكانات للعرب اليوم؛ فان النقد واللوم في القصور عن هذه المهمة ينبغي ألا يوجه للمستشرقين كونهم أعاجم ؛ بل للجانب العربي وسط توفر الإمكانات وتقلص الهوّة التي اعقبت الاستعمار الحديث.

وعلى ما تقدم وبصرف النظر عما يراد من اهداف هذا الاهتمام من قبل المستشرقين بالعربية فإنهم ينبغي أن يشكروا لاهتمامهم بتدوين نتاجاتهم واتاحتها للدارسين طيلة هذه الفترة وان يشكروا مضاعفا لانهم تصدوا لهذه المهمة وادوا هذه الخدمة[1]

ومن مظاهر اهتمام المستشرقين بلغة الضاد هي ترجمتهم لكم كبير من المؤلفات وفي علوم مختلفة احتلت فيها علوم العربية قسطا وافرا من هذه الترجمات ، فلقد ترجم القران الكريم لأول مرة إلى اللاتينية عام 1141م على يد بطرس المحترم (1092–1156م) واستمر اعتماد هذه الترجمة حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي[2]، كما نقل فاتيه (1613–1667)كتاب علم المنطق لابن سينا ت/650هـ والرثاء للطغرائي (ت:515هـ) وكلاهما ترجمهما فاتيه إلى الفرنسية. [3]

وقد تم ترجمة جزء من ألف ليله وليله ومقامات الحريري (ت:516هـ) وشرح معلقة امرئ القيس للزوزني (ت/486هـ) عام(1818–1819) ، على يد برفسال ، جان جاك(1759–1835) [4] ، كما ترجمت مقامات بديع الزمان الهمداني(ت:398هـ) والبردة للبويصري (ت:696هـ) واصل الأدب الجاهلي عند العرب، وكليلة ودمنه في ستة عشر بابا ، ومعلقة لبيد (ت:611هـ)، وترجمت أيضا شرح الفية ابن مالك(ت:672هـ) والف كتاب في النحو بمجلدين ليكون منهجا يدرس في مدرسة

---

[1] - عبده ، عبود، الأدب المقارن–مشكلات وآفاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق/1999، ص7

[2] - بدوي ، عبد الرحمن ، الموسوعة، ص68

[3] - العقيقي، نجيب، المستشرقون، دارالمعارف، القاهرة/1964م، 1/172–173.

[4] - عوني، محمد، ببلولغرافيا المصادر العربية التي حققها المستشرقون أو قاموا بترجمتها ، مجلة كلية اللسن، جامعة عين شمس، القاهرة/2004م، ص169

اللغات الشرقية وكل هذا الجهد تم بمراحل على يد البارون دي ساسي (1758-1838م) وكان يشغل منصب استاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية[1] .

وفي بواكير القرن الثامن عشر زاد اهتمام المستشرقين باللغة العربية وكان للمستشرقين الفرنسيين منهمخاصه دور مهم إذ شرعوا بتأليف الكتب الأدبية يساعدهم في ذلك الاتصال المباشر بذخائر اللغة العربية من خلال احتلال فرنسا للجزائر عام 1832م ، والمغرب عام 1881م ، ناهيك عن حملة نابليون على مصر، فقد فتحت المراكز والمعاهد الفرنسية ابوابها في البلاد العربية ، على ان اهتمام المستشرقين الفرنسيين بالعربية وآدابها لم يكن وليد القرن الثامن عشر الميلادي إذ سبقت تداعيات الحروب الصليبية اهتماما من الفرنسين بالعربية وعلومها منذ ذلك التاريخ حيث بدأت الترجمات على يد جيرار الكرموني (ت:1187م) والذي ترجم الكثير من امهات الكتب إلى اللغات الاوربية [2]

ومن مشاهير المستشرقين الذين كان لهم باع في نقل كتب العربية وادابها إلى اللغات الاخرى أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية ورئيسها جوزيف توسن رينو(1795-1867م) حيث ترجم ديوان امرئ القيس ونشره مع آخرين وكذلك ترجمته للأمثال في مقامات الحريري[3] ، وترجم هرتويج دير نبورج(1844-1908) ديوان النابغة الذبياني (ت:18ق.هـ)وكتاب تكملة كتاب ما تغلط به العامة للجواليقي (ت:539هـ)وقام أيضا بنشر وترجمة كتاب سيبويه(ت:180هـ) [4] .

وبرغم ما للعربية من خصوصية يصعب معها ترجمة كتب الاختصاص فيها إلى اللغات الاخرى إلا لمن أتقن اللغتين معا ومهر في قواعدهما لم يكتف المستشرقون بترجمة أمهات المصادر في لغة الضاد كالذي عرجت عليه هذه الدراسة ، بل شرعوا أيضا بدراسة لهجاتها التي كانت تتكلم بها شعوبها بحسب مناطقهم، وكان من اشهر هؤلاء الدارسين للهجات لغة الضاد هو جان كانتينو- Cantineau 1899-1956م

---

[1] - العقيقي، المستشرقون، 179/1؛بدوي، الموسوعة، ص226-232

[2] - خضر، ضياء، مقدمة في دراسة جهود الترجمة من العربية إلى الفرنسية، مجلة الاستشراق، ع4، دار الشؤون الثقافية، بغداد/1990، ص136.

[3] - العقيقي، المستشرقون، 187/1

[4] - العقيقي ، المستشرقون، 213/1

إذ شرع في دراسة الكثير من اللهجات وكان من اهمها لهجة حوران العربية ، ولهجة عرب تدمر ولهجات العرب في بلاد الشام وتحديدا سوريا وفلسطين وكان ذلك في الاعوام 1933الى 1937م[1]

وإذا ما أرادت هذه الدراسة استعراض حركة الترجمة التي قام ويقوم بها المستشرقون منذ شروعهم بذلك حتى اليوم، فان القائمة تطول وحسبها ما أسلفت من نماذج لمستشرقين بارزين عنو بترجمة مصادر لغة الضاد وآدابها.

الخاتمة/

تَكَشَّفَ لهذه الدراسة مجموعة نتائج بعد اطلاعها على جملة من جهود المستشرقين التي اتت بثمار إيجابية ومردودات نافعة خدمت وما زالت تخدم الباحثين في التراث العربي الإسلامي ويمكن إجمال هذه النتائج بالنقاط التالية:

اولا:- شكَّلَ سباق السيطرة على اراضي الشرق الإسلامي والتدافع المحموم لاستغلالها دافعا أساسيا للاهتمام بتراثه وآثاره ولغته ودراستها، وكان هذا كله مدعاة للانفاق وتسخير الجهود على اعلى المستويات ، فأنشأت كراسي للغات الشرقية وبنيت المتاحف وفق أرقى المواصفات وجيء بخبراء وعلماء الآثار وهم من علية علماء الغرب وكبار مفكريه، لذلك كانت نتاجاتهم غاية في الدقة وعلى قدر كبير من الإتقان والفائدة في كثير من مضانها.

ثانيا:- برغم الآثار المدمرة التي نتجت عن الاستعمار الغربي لبلدان الشرق الإسلامي والبلدان العربية على وجه الخصوص وتداعيات ذلك على جل صعد الحياة ، فان هذه السيطرة لم تخلو من فوائد في العديد من مفاصل المعرفة ومنها التحقيقات للكتب والمصنفات ونقل الآثار والحفاظ عليها ودراسة اللغات القديمة وفك شفراتها ورموزها ...الخ مما يشكل سابقة غفل أو تغافل عنها مفكري الشرق وعلمائهلأسباب جمة قد تكون الحالة السياسية المضطربة والتنافس الاستعماري المتبوع بالاحتلالات المباشرة وقلة الإمكانات وضعفها هي السبب الأهم في هذه الغفلة والإهمال وعدم الاهتمام بالتراث.

---

[1] - العقيقي، المستشرقون، 283/1

ثالثا:- شجعت اسباب ومقومات التحضر الحديثة وكثـرة ترديـد الغـرب الاوربـي لشعارات المساواة ونبذ العنف والعنصرية ....الخ على جنوح حركة الاستشراق نحـو البحث العلمي المستقل ليدرأالمستشرقون عن أنفسهم شبهة الارتباط المباشر بالاستعمار وليقنع المستشرقون قرائهمبان الاستشراق الحديث غير الاستشراق التقليدي الذي كانت ترعاه الكنيسة وتمده بدوافع ايديولوجيه .وليس بالضـرورة أن يكـون هـذا التصـور صحيحا إذ ان الاستشراق هو قلب الاستعمار النابض وان تحضـرت اسـاليبه حتـى يخالها البعض بعيدة عن الاستعمار بفقدانها خيوط الصلة المباشرة به.

رابعا:- من المخل كثيرا بآلية التواصل الحضـاري بـين الامـم أن تجيَّـر نتاجـات المستشرقين وتبوب على انها من اساليب الاستعمار التي لا ينبغي التعـاطي معهـا أو الإفادة منها ، بل ينبغي الإفادة من كل صغيرة وكبيرة توصل لها علمـائهم وتوظيفهـا معلومةً مفيدة في بحوثنا العلمية بصرف النظر عما وضفت لـه وذلـك بعـد تسـليط الضوء عليها وتقييمها ، ذلك أن حضارات العالم بمختلف مشاربها انطلقت من حيـث انتهى الآخرون .

خامسا:- ينبغي لمن يتصدى لتقييم الدراسات الاستشراقية أو يبحث فيها أن تكـون لـه حصانة فكرية وعلمية رصينة يرتكز بها على موروث امته الديني والحضـاري، لـئلا يرتمي مُسلِّما بأحضان افكارهم التي صاغوها بعناية لاصطياد مـن لا يتسـلح بتلـك الحصانة ، وليرد بقلمه وفيه – ما استطاع- من افتراءآتهم .